تخييل المرجع وبناء التاريخ في رواية" جذور وأجنحة" لسليم بتقة

الدكتور: عبد الرزاق بن دحمان
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر– بسكرة

استهلال:

رواية" جذور وأجنحة" للكاتب(سليم بتقة) عمل روائي من بين مجموعة اعمال أدبية شكلت في مجملها عوالم وتصورات مختلفة نقلتها كتابات سردية اشتغل فيها المبدع على قضايا التاريخ والإنسان والأرض والهوية، في هذا العمل الروائي انفتح المشهد السردي على عوالم وفضاءات تخييلية استحضرها الروائي قصد تمثيل صورة الواقع الإجتماعي في مرحلة تاريخية مقتطفة من مسيرة الشعب الجزائري وهو يواجه صدمة الاستعمار، ومن وراء هذا المبنى التاريخي تجد الكتابة نفسها منفتحة على خطاب الثقافة وغرائبية الشرق وخطاب الاستشراق وأشياء في الحنين.

الفضاء السردي في رواية(جذور وأجنحة) فضاء ضيق ومحصور ضمن حركية مكانية معلومة الاتجاهات/ فأحداث الرواية جرت وفق منطق تسلسلي بدأ برحلة الجندي الفرنسي" فابيان" نحو الجنوب الجزائري وتحديدا نحو" دشرة سيدي لحسن الطرهوني" وفي هذه القرية تنتهي أحداث الرواية

1/ تخييل المرجع:

في كثير من الأحوال، الرواية لا تقول الواقع ولكن تتخيله كما يجب أن يكون فهي العالم الآخر الذي يمكن تصديقه، فغاية التخييل هي خلق جيوب على مستوى الفكر نستطيع من خلاله بناء تصورات ومواقف تخص الوجود والحياة" فبناء عالم تخييلي استنادا إلى حقائق موضوعية معناه الرقي بالعرضي والزائل إلى مصاف القيم الثابتة التي يتكفل

الوجدان بتخليصها من سمات الخاص والمفرد[1]، وفي هذا العمل السردي تندمج الأحداث الروائية ضمن أحوال التاريخ لتنسج منه خيوط الواقع الذي تتزاحم فيه الذاكرة وهواجس التاريخ، وهذا قصد تحويل المادة التاريخية إلى مرجعيات تخييلية يبث من خلالها الروائي رؤاه وأفكاره المراد تبليغها للقارئ، وفي هذا العمل تم الإشتغال على عناصر الثورة الجزائرية. وما حماته من أحداث تاريخية لها حضورها المتميز على مستوى الكتابات الأدبية.

يحضر التاريخ في هذا العمل الفني بصورة منتظمة أساسها المرجع التخييلي الذي غذاه الكاتب بمواقف واقعية تبدأ من أول مشهد سردي جسدته الرواية، فمعايشة الذات الكاتبة لمختلف التصورات الروائية جعل فعل الكتابة في مثل هذه الحالات يرسم مختلف التخيلات التي بامكانها أن تمنح النص شيئا من الواقعية والمصداقية، ولهذا" لا يمكن لأي جماعة بشرية أن تعيش بدون متخيل على شكل حكايات أو خرافات أو أساطير أو قصص أو أفلام أو غيرها من وسائل التعبير المكتوبة والشفوية والمرئية.... وتتحدد أنماط المتخيل حسب الذهنية السائدة في ارتباطها بأصناف التصورات والتوجهات الفكرية داخل المؤسسات السوسيوثقافية في لحظة من التاريخ مقيمة بذلك عالما موازيا قد يكون موازيا أو معدلا أو مناقضا للعالم الواقعي إلا أنه عالم ضروري، فإنه ما زالت لدى الإنسان جاذبية نحو كل ما ينفلت من حدود اليومي وكل شيء يشير إلى أن الإنسان عاجز عن الإكتفاء بما هو واقعي وعقلاني..[2]، وعليه حاول الروائي في هذا المشروع السردي نقل صورة تخييلية واقعية هدفها دمج ملامح التاريخ ضمن خطابات متعددة التشكل والتمثيل، فأحداث الرواية ليست حقيقية ولكنها واقعية بحيث لا يمكن للذهن البشري أن يبنيها خارج منظومة القيم الإجتماعية والسياسية، فالمرجع في هذه الأحوال هو مرجع البناء الذهني الذي يمتلكه الروائي ووضعه في لحظة الوجود التاريخي، بمعنى ينبغي علينا معرفة التصور الشخصي الذي تضعنا فيه الرواية من خلال رؤية الأديب للأحداث والشخصيات بنى الكاتب عالمه الروائي على خلفية معرفية حرك من خلالها الشخصيات وجعلها تتفاعل مع مقصدية الفكرة المبرمجة في ذهن الكاتب" فشخصية الفرنسي" فابيان دي جيرلو" لها موقعها الخاص في تحريك درامية الحدث السردي، الرحلة مفتوحة على عوالم تفتحها هذه الشخصية المركبة من موقفين متعارضين موقف الانتماء للأصل الفرنسي وواجب الدافع الوطني كفرنسي

أرسل من أجل مهمة رسمية تتمثل في تزويد المعسكر الفرنسي بمعلومات عن واقع وسير الثورة الجزائرية، وموقف ثان يتمثل في الرغبة في اكتشاف الآخر والحنين إلى عوالم الصحراء كما كان قد قرأ عليها من خلال الصحف وحديث الأخرين، وهكذا تستمر المشاهد الروائية في التطور حتى يتحول" فابيان" من شخصية استعمارية الى شخصية مندمجة مع أهالي الدشرة ويصبح واحدا من أبناءها بل يتحول إلى مناصر ومتعاطف مع أحوال القرية إلى درجة أنه أعلن اسلامه، وطلب يد" الضاوية" من والدها لتكون زوجة له بعد أن شغفته حبا منذ أن رآها وهي تزور المقبرة في أيام معلومات فبعثت في نفسه الشوق والاحترام وهذا من خلال صورتها في الجلوس وحديثها العذب وكذا أخلاقها المرحة، وهكذا تبنى الأحداث وفق من طق التحول الذي بعث في هذا العمل السردي شيئا من الحبكة الفنية " فالبطل يحاول دوما تجاوز وضعه الإشكالي قصد العبور إلى عالم. القيم انطلاقا من رؤيته للعالم[3]، وعليه فطابع المسار السردي يأتي ليحمل الميزة الإشكالية للرواية وجعلها تنمو وفق منطق التحول والتغير، هذا المعلم الذي استثمر فيه الروائي جهده وجعله خطابا يتأسس على مرجع تخييلي ظهرت بصماته عبر اسماء، الشخصيات التي منحها الكاتب قيمة عالية في حين أهمل عمدا تسمية الأماكن والمعالم الأخرى: فالضاوية، والحاج محمد، البغدادي، بشير ولد حمى الصغير، سعدية، عيسى، سيدي لحسن الطرهوني، العيد، الطيب فكل هذه الرموز الشخصية لها مرجعيتها التخييلية في منح هذا العمل منحى واقعيا ينسجم مع القراءة السوسيوثقافية للواقع الجزائري، وقد جاء هذا على لسان الراوي".... واقتصر على مساءلة الضي عن رأيه في المنطقة وعن احتياجاته.... انهم لطفاء، كرماء، معاشرون انهم ليسوا: bicot raton bougnoule »

الــ" .... بل أناس مثل بقية الناس الآخرين لهم اسماء وألقاب(الطيب، العيد، الحاج، عيسى)

انتماء وأنساب لديهم أسر تعمل تقريبا كجميع العائلات الأخرى، انهم يحبون يكرهون، يغارون

يغنون، يققرون، .....[4] فاللغة التي يتحدث بها الراوي في هذا المقام لها دلالات نفسية في منح الفكرة شيئا من المصداقية وكأن الروائي يريد أن يجعل من الفضاء التخييلي ملمحا دالا على خصوصية المشرقي والغربي وهذا شيء طبيعي في مثل هذه المواقف، وكأن الرجل

الغربي يريد أن يبحث عن نصفه الأخر والذي رآه مفقودا في حياته الغربية وهذا من خلال شخصية الفرنسي" فابيان" الذي تماهى كليا مع الطابع البدوي والصحراوي الذي أثر فيه أيما تأثير ولا أن هذا الخطاب قد وجد صداه من خلال أدب" الرحالة الغربيين" أمثال" موباسون(1850 ودي لاكروا، اندري جيد)، وكل الذين استهوتهم حضارة الشرق وخاصة من خلال" التركيز على صور الغرائبية للشرق التي تستهوي أو تستجدي الذوق الغربي، والتي ربما يجد فيها الغربي جزأه المفقود/ الآخر أو صورة الآخر التي رسمها في مخيلته، وعليه تتأسس شرقنة الذات على ميتا فيزيقا التماهي مع ذات الآخر" المتفوق" واللحاق بركبه على حساب جلد الذات وتعنيفها[5]، إنها صورة الشرق كما يتخيلها الغرب.

2/ مبنى الإنفتاح:

رواية(جذور وأجنحة) كتابة متعددة الخطابات، تحكمها جدلية:" الآنا والآخر" وهذا من خلال توزع البناء الفكري للفضاء المكاني والزماني، وكذا وضع هذا العمل ضمن سياقاته التاريخية، والتي نظنها أنها سياقات" ما بعد الكولونيالية"، وعليه تطرح هذه الرواية قضية التعايش مع الآخر الذي تبددت صورته التاريخية وتحولت بتحول السلوكات والمواقف الانسانية، فمعايشة الوقائع التاريخية جعل منطق هذا العمل السردي يأخذ بعدا استشراقيا انطلق منه الكاتب، والذي يبدو متأثرا بصورة الكتابات الاستشراقية أو تلك الأعمال التي أقامها كتاب فرنسيون أمثال" دي لكروا" و" اندري جيد" و" موباسان" وغيرهم من كتّاب القصة والرواية وخصوصا الذين افتتنوا بالشرق فجعلوه مرجعا حضاريا ومعرفيا في مختلف كتاباتهم الأدبية، وفي هذا المبنى السردي تتموقع عوالم الرواية ضمن فضاءات تاريخية حاول الروائي" سليم بتقة" استثمارها وفق ثنائية شرق/ غرب، هذه الثنائية التي طوّرها الروائي بدء من العنوان" جذور وأجنحة".

تقول الرواية: مع مرور الأيام كان أكثر تشوفا لاكتشاف هذا العالم المجهول الذي بات معين قوة ومصدر تلاق مع حضارات أخرى تختلف تماما عن الحضارات الغربية التي عرفها ، أحس بأصوات لذيذة تدفعه إلى الإستجابة لنداءات المشاعر الغسانية هذه المرة لا العسكرية والتي رسمت في ذهنه صورة جميلة لعالم قبل أن يراه ....."[6]، هذه صورة الشرق التي رسمها الفرنسي" فابيان" صورة جميلة جعلته يبني أملا وحلنا يخرجه من قساوة الحياة العسكرية ومن مادية الحضارة الغربية، فصورة المكان هي وحدها التي منحت البطل

ملمحا استرجاعيا جعله يعيد ترتيب ذاكرته ويعيد رسم حياة أخرى من وراء مظهر الحياة وسلوكات أهل القرية:" أكتب من الصحراء أعيش الآن فيها بحكم عملي ... الصحراء ليست طبيعة مراهقة ووحشية عراك دائم مع طبيعتها القاسية لم يمض على وجودي هنا الكثير لم أكن سعيدا من قبل، ولكنني أصبحت أشعر أن وجودي يجلب لي القيمة... وجدت مؤنسا أبثه ما أحس.. أصبحنا أصدقاء...."[7]، هذا مشهد تاريخي يحمل في بعده تحولات جذرية في مسيرة البطل، ولا شك أن دلالة الفعل" وجدت" لها قيمة حضارية مهمة وخطيرة في إبراز تعلق الذات الفرنسية بحضارة الشرق.

تتواصل المشاهد المكانية عبر سلسلة من الأوصاف، والتي جعل منها الكاتب بؤرة سردية يطل من خلالها على جماليات المكان وارتباطه بالذات، وخاصة حين يصف السارد بعض المواقف العفوية ن كالذي نجده في المقطع الآتي:" نهضت الضاوية باكرا كالعادة على صياح الديك وثغاء الأغنام، وعلى ضرير الباب الخشبي يفتحه الحاج امحمد العائد من صلاة الصبح... تفتح نافذة الغرفة يتسلل من خلالها نسيم ندي يعبق بأريج الأشجار.. تقف برهة أمام النافذة تتنشق الهواء الصافي ثم ترنو بعينيها إلى السماء متأملة الصبح وهو يتنفس والظلمة وهي تنحسر[8]

إنها صورة الحياة العفوية تحمل معها معنى الحياة ومعنى الأمل الذي يسكن كل شخصية من شخصيات الرواية، وكأن في المشهد قدرة على تحويل الحياة تحويلا يتماشى ومنطلق المعنى والمقصد الذي رسمه الكاتب لمعنى الرواية، وعليه فالمرجعية التاريخية لها أيضا من هذا المنحى سلطة معرفية متواصلة مع الحاضر وهذا من خلال ملامسة أخلاقيات الرواية واحداثها المرتبطة بالمرجع التاريخي في مرحلة من مراحل الوجود الفرنسي بالجزائر، وعن طريق التمويه الزني يقف المشهد المكاني والزماني من وراء التحركات السريعة والتي يقف من خلالها الراوي موقف السارد المتحقق من الأحداث، وهذا ما منح هذا العمل شيئا من الشرعية التي وطّدت العلاقة بين الزمن المروي والحاضر المتمثل في صورة الذاكرة وواقع العربي وكيف تتحدد صورته من صورته من خلال الأخر،" كأن يختفي الحاضر وراء الزمن المروي الذي هو الماضي يستعاد بضرب خاص من التخييل القائم على الإيهام بواقعية الحدث. وما المطابقة المتبعة في هذا النوع إلا أساس مرجعي يقوم عليه فعل التخييل، كأن يتشبه الروائي بالمؤرخ لحقبة تاريخية أو لمجتمع وينتهج في

الظاهر أسلوب التبعيد بين الراوي والمروي عند المراهنة على ظاهرة المحايدة برؤية تشميلية تحتفي بالمشاهد والاحداث وتصف المجالات الواسعة باختصار العصور والمراحل التاريخية للمجتمعات، كما تحرص على انشاء علاقة تماه صريح بين زمن الأحداث الروائي والزمن التاريخي"[9]. هكذا تبني الرواية المنشغلة على التاريخ عالمها اليومي والواقعي، وهذا من خلال اعادة المرجع التاريخي وتأويله بصورة منتظمة مع واقع الحياة اليومية وهذا ما حاولت رواية" جذور وأجنحة" تبليغه من مقاصد معرفية وتاريخية ترصد حياة المجتمع الجزائري في مرحلة حالكة من مراحله التاريخية، فصورة القرية، وصورة الفرنسي، وتحركات الاهالي وهم يرصدون حركية المشهد الدرامي، وكذا رمزية القرية، وضريح" سيدي محمد الطرهوني" وغيرها من المواقف والمشاهد كلها عناصر احتفى بها المكان، هذا المكان الذي جعله الروائي مسرحا ثوريا لتمرير خطاب الرواية في فترة الاحتلال الفرنسي، ومن هذا الطرح المعرفي فإن عنصر التاريخ في هذا العمل الروائي له دلالات مرجعية استلهمها الروائي من تخييل الذاكرة، والذي بدوره يؤسس لواقع وحيثيات الهوية الوطنية من خلال علاقة الأخر بالأنا العربية في مرحلة تأزمها، تقول الرواية: مع مرور الأيام كان أكثر تشوفا لاكتشاف هذا العالم المجهول الذي بات معين قوة ومصدر تلاق مع حضارة أخرى تختلف تماما عن الحضارة الغربية التي عرفها أحس بأصوات لذيذة تدفعه إلى الاستجابة لنداءات المشاعر الانسانية هذه المرة لا العسكرية، والتي رسمت في ذهنه صورة جميلة لعالم قبل أن يراه .....[10].

3/ روح الاستشراق: يتمركز هذا العمل الروائي حول فكرة" الاستشراق" لكن في مفهومه الحديث والمتمثل في تأثير الشرق في تبلور الفكر الغربي، أو بالأحرى: فكرة استلهام الرجل الغربي للواقع العربي من خلال حوار الكتابات كعمل فنطازي نخبوي يعيد تضميد الشرخ العنصري القائم حول مرجعيات الشرق، هذا الشرق الذي تصور الأخر بمنظور بربري وهجين ورجعي هي الصزرة التي رسمها الفكر الكولنيالي الاستحواذي الذي خلق من نفسه تمركزا معرفيا وثقافيا يهيمن به على مختلف الثقافات والهويات، في حين تنقلب هذه الصورة حين راجع الغرب ذاته فوجدها ذاتا مهترئة باهتة غلبت عليها روح التسلط والهيمنة المفرطة، وهذا من خلال اكتشاف الجانب الأخر للإنسان العربي الذي يحمل في اعماقه روح التسامح والعفوية والانفتاح،" يعلم فابيان إن معظم الكتاب والفنانين الفرنسيين

سافروا إلى الشرق من اجل ان يتعرفوا عليه ويمتعوا نظرهم بمشاهده الغريبة كليا على حياة الغرب، كالصحراء، النوق، والاضواء الساطعة، والحياة الريفية البريئة.... لقد أيقن ان تلك الابداعات كانت في معظمها توثق لمظاهر الحياة في الجزائر في القرن التاسع عشر، غير انها تسيئ لتقاليد مجتمع اسلامي وتمثل شكلا من اشكال الدعاية الاستعمارية..[11]

فمن هذه المواقف والأفكار تتضح معالم الرواية في بناء فكرة التاريخ وهذا من خلال أسلبة المواقع اللغوية المندسة من وراء خطاب التجريب وخصوصا لغة هذه العمل الروائي الذي أسسه الكاتب عبر منحى لغوي غلب عليه التعدد اللغوي في استنطاق الشخصيات والاحداث والمواقف ولهذا نجد الروائي يتعامل مع الشخصية الفرنسية من حيث هي ناطقة باللغة الفرنسية وهذا ما يجعنا نتجاوز حدود التأويل السطحي لنلج عالم المرجعية الفلسفية والمعرفية التي أثرت في تكوين فكر المبدع الذي تماهى مع فكرة الاستشراف أيما تماهي إلى درجة أن الحبكة الفنية في هذا العمل لم تخدم المسار الأسلوبي والدرامي لأحداث الرواية وهذا ما نجده في بعض البناءات الفكرية التي خرجت عن مسار السرد التدريجي والشاهد على ذلك ما نقرأه حول شخصية" الضاوية" والتي أعجب بها الجندي الفرنسي" فابيان" فرأى فيها صورته التي أضاعها منذ زمن بعيد في حين يتحول هذا الموقف ليكشف لنا الروائي أن" الضاوية" تنحدر من اصول غربية وليست عربية، وهذا ما فكك البناء الدرامي وجعل عنصر الدراما الفنية عنصرا مفككا يشعر فيه القارئ بتراجع القيمة الجمالية والفكرية لمشروع الرواية.

وبكلمة نقول إن فعل الكتابة الروائية أخذ يأخذ موقعه الفكري ضمن منظومة التحولات الجذرية التي عرفتها الكتابة في مرحلة ما بعد الكولونيالية في بعدها الاستشراقي المتميز، وهذا بطبيعة الحال يرجع إلى كفاءات الروائيين في تحويل المادة التاريخية إلى مشروع سردي يصور الواقع اليومي لحياة الناس والأشخاص وعليه" فان التراكم الحاصل في الرواية الجزائرية منذ منتصف السبعينيات إلى اليوم يؤشر على وجود تحولات ايجابية في المكونات الأدبية لهذا الجنس التعبيري قوام ذلك الاتجاه نحو تكريس خصوصية الخطاب الروائي بعيدا عن التناول الأطروحي، وفي أفق بلورة وجهة نظر نقدية للذات والعالم ...[12]

المراجـــــع :

1/ سعيد بنكراد: السرد الروائي وتجربة المعنى، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط:2018 ص 219

2/ أحمد اليبوري: الرواية العربية التكون والاشتغال، الدار البيضاء ط:2000، ص 31

3/ ينظر هذه الفكرة: كتاب" بيار زيما، نحو سوسيولوجيا النص الادبي، ينظر: مجلة العرب والفكر العالمي ع /10 1998

4/ رواية جذور واجنحة: سليم بتقة، دار علي بن زيد 2014 ص 34

5/ عمر كوش: أقلمة المفاهيم، المركز الثقافي العربي ط1 2002 المغرب ص 147

6/ سليم بتقة: جذور واجنحة: ص 25

7/ جذور واجنحة: ص 23

8/ الرواية: ص 35.

9/ الرواية: ص 31

10/ الرواية: ص 31

11/ عبد الحميد عقار/ الرواية المغاربية" تحولات اللغة والخطاب الدار البيضاء ط1 2000 ص 23.